

د. عبد الرحمن البر يكتب: حرب أكتوبر وأسباب النصر



3 أكتوبر 2019

في تاريخ الأمم أيام خالدة لا تنسى، وتظل الأمة في حاجة إلى تذكرها واستلها م دروسها وعبرها وهي ترنو لمستقبلها «وَدَكَّرْهُمْ يَأَيَّامَ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، ومن أهم الأيام في تاريخنا الحديث يوم العاشر من رمضان 1393هـ السادس من أكتوبر 1973 م حين حققت الأمة أول نصر حقيقي في تاريخها الحديث على الصهاينة، بعد هزائم متتالية تجرعت الأمة مرارتها، بعد أن أغرقها حكامها في بحر الاستبداد الذي مسخ شخصيتها، وجرف قيمها وأخلاقها ومروءتها وضيع رجولتها، وحرص على إبعادها عن دينها مصدر قوتها وعزتها، وشغلها بالتمجيد للمستبد الطالم عن التدريب الجيد والاستعداد اللازم لمواجهة عدوها، وكانت الهزيمة الكبرى في الخامس من يونية سنة 1967م التي دفعت فيها الأمة ثمنا باهظا بعشرات الآلاف من خيرة شبابها، فضلا عن تدمير معظم عتادها وتسليم مساحات شاسعة من أرضها لعدوها الذي استأسد وأعلن أنه لا يقهر.

لكل هذا وغيره كانت حرب العاشر من رمضان حدثا فاصلا في تاريخ الأمة التي عادت تعلن عن نفسها بشكل جديد، وتؤكد أنها قادرة بفضل الله تعالى على تجاوز جراحها، وتحقيق آمالها، متى صحت الإرادة وصدقت النية واتضح الهدف واجتمعت الأمة حول ثوابتها لا حول أشخاص حكامها.

أسباب النصر في حرب أكتوبر

فضلا عن التدريب الصحيح والإعداد الجيد فقد كان من أهم أسباب النصر: أن عادت الأمة إلى الاستمسك بدينها والاعتصام به، فهما لأصوله وتعلما لشرائعه، وتمثلا لأخلاقه، وتحليًا بأدابه، والتزامًا بأسسه وقواعده، وتوحدًا على عقائده ومبادئه، وقد وعد الله ووعده حق بنصر من ينصرونه، ويقومون دينه، فقال «إِنْ تَضَرُّوا اللَّهَ تَضَرُّكُمْ وَيَبْتَئْتُ أَفْئَاتِكُمْ»، فانطلقت كئائب الدعاة بين الجنود تصحح العقيدة التي تحكم توجهات المقاتلين وتردهم إلى جادة الحق، وتقيم المساجد محل (البارات) في الوحدات المختلفة، وأدرك الجندي المجاهد أن النصر لا يكون بقوة السلاح فقط، وإنما يكون بقوة الإيمان، وبالصدق مع الله تعالى، وبوضوح الهدف الذي يقاتل من أجله الإنسان، ويكون بالتوكل على الله «بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ» وأنه إن مات مات شهيدًا، وإن عاش عاش حميدًا.

ومن ثم كانت صيحة المجاهدين في الميدان (الله أكبر) وكان يقين جنودنا أن الله أكبر من كل تحصينات الصهاينة ومن وراءهم:

إذا جلجلت "الله أكبر" في الوعي تخاذلت الأصوات عن ذلك النداء
ومن خاصم الرحمن خابت جهوده وضاعت مساعيه وأنعابه سُدى
وكيف يقوم الظلم في وجه شرعية تسامت على كل الشرائع مقصدا
سماوية الأغراض ساوت بنهجها جميع بني الدنيا مسودًا وسيدا
فما فضلت قومًا لتحقّر غيرهم ولا جحدت حقًا ولا أنكرت يدا
تريد الهدى للناس والناس دأبهم يعادون من يدعو إلى الخير والهدى

كانت قلوب المجاهدين في المعركة تردد التكبير مع الألسن فكان النصر هو المكافأة الإلهية، فهل نعي هذا الدرس ونحن نؤسس عصر جديد من الانتصارات بإذن الله؟

أما السبب الثاني من أسباب النصر: فكان إشعال روح التحدي في قلوب الأمة وتقوية الأمل في نفوس المجاهدين، وكانت معارك الاستنزاف ميدانا لبعث هذه الروح وتوكيدا على أن هزيمة العدو ممكنة رغم كل الدعايات الجبارة عن جيشه الذي لا يقهر وتحصيناته التي لا يمكن اختراقها وحلفائه الذين لا يمكن أن يسمحوا بهزيمته، فكانت الصربات الموجعة التي وجهها المجاهدون في عمليات الاستنزاف إعلانا بأن نصر هذه الأمة قد انعقد غمامه، وقد أقبلت أيامه، وأن الشدائد التي تمر بها الأمة هي أمارات ميلاد جديد بإذن الله، وأن مع العسر يسرين، ولا تزال هذه الطريقة من أنجح الطرق في مواجهة عدو متترس بترسانة هائلة من الأسلحة الحديثة، وبهذه الطريقة انهزم العدو في جنوب لبنان وفي غزة، واضطر للانسحاب بجنوده من جانب واحد من كلتا الجبهتين، وهذا درس ينبغي ألا يغيب عن صانعي الإستراتيجيات في الأمة.

والسبب الثالث من أسباب النصر: متانة الجبهة الداخلية وقوة الوحدة الوطنية؛ إذ أدرك المصريون جميعًا مسلمين ومسيحيين أنه لا يمكن أن نواجه التحديات الصهيونية إلا بصف وطني متماسك، ولحمة قوية مبنية على سائر المستويات، ومجتمع مترابط، وصف متحد، وقد كانت صيحة (الله أكبر) نشيد

الجندي المصري المسلم والمسيحي على السواء، ولم يسمح العقلاء في الأمة للفتنة الطائفية ان تطل براسها او حتى ان تلعب بذيلها، فصدر الجميع عن روح وطنية رائنة، وحمل الجميع أرواحهم على أكفهم فداء لوطنهم ولعزتهم، وفي ذلك أكبر دليل على سلامة النسيج الاجتماعي الوطني المصري، وعلى أن ما حصل بعد ذلك من شحن أو فرز طائفي هو أمر مصنوع ودخيل على الشخصية المصرية، ومن واجبا جميعا أن نقف بالمرصاد لمن يسعى لإشعال فتيل الفتنة وإحداث الواقعة بين أبناء الوطن الواحد.

السبب الرابع من أسباب النصر: العودة إلى وحدة الأمة؛ حيث أدركت كل دولة أنها لا بد أن تكون قوة لأختها، وكان شعار الجميع قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ بعد أن أدرك الجميع أن التفرق سر الضعف وأن التنازع باب الفشل ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَازَعُوا فَيفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، وأيقنوا أن العدو حريص على العبث بنا وبمقدساتنا، ومجتهد في شق صفوفنا، وجاد في العمل على الانفراد بكل منا على حدة، في الوقت الذي تجتمع كل قوى الاستعمار العالمي على معاونة الصهاينة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِئْتَةٌ فِي الْأَرْضِ وَغَسَاذٌ كَثِيرٌ﴾، ومن هنا كان الاستخدام العربي الناجح ل سلاح قطع البترول عن الدول المساندة للكيان الصهيوني، وكان رائد ذلك الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله، فضلا عن الكتابات العربية التي دخلت المعركة إلى جوار الجيش المصري والسوري، وإن كانت في معظمها رمزية، لكنها كانت تعبيراً عن حالة الوحدة التي لا غنى للأمة عنها إذا أرادت أن تكسب معركتها مع عدوها.

ثورات الربيع العربي مقدمة النصر الكبير بإذن الله

وأخيراً فقد بلغ الوعي العربي الإسلامي مرحلة فارقة نحو الصعود بإذن الله، فإن امتلاك الشعوب قرارها وانتصارها على المستبدين بأمرها هو بداية الطريق نحو النصر في كل الميادين بإذن الله تعالى؛ لأن الأحرار هم الذين يصنعون الأمجاد لأمتهم، وإن قيادة التيار الإسلامي الوسطي لجديرة بأن تأخذ الأمة إلى آفاق جديدة من النهوض، تستلهم روح النصر الذي تحقق في أكتوبر، وتتعالى على روح الانهزام التي عرستها الاستبداد والمستبدون، وتتجاوز حالة الإحباط التي يروج لها المرجفون.

وإنني أقول لأولئك المنبهرين بقوة عدوهم، والمروجين لفشل أمتهم: إن الهزيمة النفسية هي أفسى وأشد ألوان الهزيمة في المعارك، وإن ألف معركة يخسرها الجيش في الميدان أهون من معركة واحدة يخسرها في نفوس الجنود، وإن الأمة الآن بفضل الله قد تجاوزت هذا الإحباط، وماضية في طريقها نحو النصر والنهوض، فأفسحوا لها الطريق من فضلكم، وكفوا عن ترويح اليأس، فالأمة على موعد مع نصر أكيد بإذن الله..

لا تقولوا: زرع الزارعُ والباغي حَصَدُ
ذهب الأقصى وضاعت قدسنا منّا وحيفانا وبافا وصَقَدُ
لا تقولوا: حارس النَّعْرِ رَقَدُ
أنا لا أنكر أَنَّ البَغِيَّ فِي الدُّنْيَا ظَهْرُ
والصِّمِيرِ الحَيِّ فِي دَوَّامَةِ العَصْرِ انْصَهَرَ
أنا لا أنكر أَنَّ الوَهْمَ فِي عَالَمِنَا المَسْكُونِ بالوَهْمِ انتشر
غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَرُلْ أَحْلَفَ بِاللَّهِ الأَحْدُ
أَنَّ تَصَرَّفَ اللّهُ آتٍ وَعَدُوُّ اللّهِ لَنْ يَلْقَى مِنَ اللّهِ سِتْدُ
لَنْ يِنَالِ المَعْتَدِي مَا يَبْتَغِي فِي القَدْسِ مَا دَامَ لَنَا فِيهَا وَلَدُ

والله أكبر ولله الحمد.